...أنقذَني من الحَمْأةِ
ثبّتَني على صخرةِ...

بقلم أدما حبيبي

صرختِ الطفلةُ الصغيرةُ **بابا مات.. بابا مات..** فراحت أمها تبكي وكذا تبعتْها النساءُ اللاتي كنَّ بين الحشد في الحفل الكبير يتابعن التمثيلية التي تُقَدَّم على المسرح **في كنيسة الاتحاد المسيحي بدمشق في أوائل الستينات.** حصل هذا عندما أُسدِلَ الستارُ وأُطفأتِ الأنوارُ وخيَّم الموت بظلّه الثقيل على نفوس الحاضرين. أما الكلمات التي كانت تخرج من فم الأخ الأصغر بعد تنفيذ حكم الإعدام بأخيه الأكبر ، فلم تكن إلا كلمات الندم والتوبة وطلب المغفرة عما مضى. وسُمِعَ صوتُه المتحشرج وهو يتقطّع أحياناً يفوه ويقول: **اثنان ماتا لأجلي... أجل إثنان...** لقد مات أخي المؤمن عنّي إذ لبس ثيابي المدمَّاة يوم أتت الشرطة لتلقي القبض علي، وأيضاً مات عني يسوعُ المسيح أنا المذنبُ الأثيم. نعم يا إخوتي، **إثنان ماتا لأجلي.**

وما هي إلا لحيظات حتى نزل أبو الطفلة الصغيرة عن المسرح وطوّق ابنته بين ذراعيه وراح يقبّلها والدموع تنهمر من عينيه. لم يَقمْ بدور الأخ الأكبر المؤمن فحسب لأنه أراد التمثيل . كلا، بل لأنه اكتشف حقاً معنى الحياة الصحيح وقد اختبر عمقها وهدفها الأسمى. ولازلت أنا نفسي أذكر ذلك المشهد الأخير من تلك التمثيلية إذ كنت من بين الأولاد الصغارالحاضرين يومها في الكنيسة. والآن، وحين التقيته في بيت أحد الأقرباء الأعزاء مؤخرا، قصَّ علي وعلى الزائرين اختباره والأحداث المثيرة التي رافقت هذا الاختبار. قال والبسمة تعلو شفتيه: كنت شاباً مفعماً بالحيوية والنشاط، وأعمل في إحدى المطابع ، وأقضي الليالي في السهرات والحفلات مع الأصدقاء والخلاّن. وفي كل ليلة تعوّدت أن أخرج لكي أسهر مع أصدقائي حتى ساعات الفجر الأولى وكان لنا لقاء مع الشرب والمسكر وكل ما نريد ارتكابه من خطايا وشرور. وفي العام ١٩٥٩ خطبتُ ابنة صديقٍ حميم لأبي. وكانت فتاة ظريفة تلازم البيت وهي من عائلة مؤمنة ومحافظة. ولبّيتُ دعوات أبيها المتكررة لي في حضور الكنيسة معهم عدة مرات أثناء خطوبتنا خجلاً منه ومسايرةً له. وفي أحد الأيام قال لي والدها لماذا لا تأتي إلى الكنيسة يا ريمون يوم الأحد فهناك واعظ شاب قد قَدِم من لبنان واسمه موريس جريس سوف يعظ لنا . ولمّا علمت أنه واعظ شاب، قلت في نفسي سأذهب. وهناك في تلك الليلة سمعت كلاماً لم أسمعه قطُّ في حياتي. سمعت عن الخلاص بيسوع المسيح والغفران الإلهي الكامل. وقال الواعظ في تلك الليلة: إذا أردت يا عزيزي تستطيع أن تحصل على هذا الخلاص المجاني هذه الليلة، إن أنت فقط صليت من كل قلبك وتبت عن خطاياك.

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

وليس هذا فحسب بل إن الله سيغفر لك كل خطاياك وآثامك. ولما انفضّ الاجتماع أردت كالعادة أن أذهب لأسهر مع أصدقائي، لكن كلام الواعظ بقي يلاحقني. فقررت أن أذهب إلى البيت. وتوجهت مشياً على الأقدام إلى شارع بغداد وقلبي مثقل بكلام الواعظ. ورحت أنظر إلى السماء وشرعت أحدث الله وأقول: إذا كان هذا صحيحاً فأنا أريد أن أتخلّص من عاداتي الفاسدة وخطاياي الكثيرة التي تُنهك كاهلي. أنا يا رب مشمئز من نفسي وتَعِب من كثرة السهر وشُرب الدخان والخمرة وقضاء الوقت في الحانات وعُلَب الليل. عندها صليت من كل قلبي وأنا في الشارع غير آبهٍ بمَن حولي من المشاة. وكان ذلك في السابع عشر من شهر أكتوبر من عام ١٩٥٩. ولما أفقتُ من صلاتي أحسست بأن الله قد سمع صلاتي وتغيّرتُ من الداخل. ووجدت نفسي وقد أصبحت أمام باب البيت. وعندما رأتني والدتي تعجبتْ جداً من عودتي باكرا إذ كانت الساعة ما تزال العاشرة. فركضت ناحيتي وتحسستْ جبيني وسألتْ إن كنتُ مريضاً؟ قلت لها لا .. لكنني أريد أن أنام. ونمتُ ليلتها حتى الصباح . ولما أفقت لم أستطع أن أضع السيجارة في فمي كما كانت عادتي. بل شعرت باشمئزاز تام منها. وذهبت إلى العمل وكنت طوال اليوم أنتظر حلول موعد الاجتماع في الكنيسة بفارغ الصبر. وما أن حلَّ المساء حتى كنت أول الحاضرين. وحالما انتهى الواعظ من إلقاء عظته وجَّه الدعوة لكل من يريد أن يصلي صلاة التوبة أن يرفع يده ليراه. فرفعتُ يدي. وعندما اقترب مني الواعظ بعد انتهاء الاجتماع وسألني إذا كنت أريد أن أصلي؟ قلت له: لقد فعلت. وكان ذلك يوم البارحة. فسُرَّ جداً وشكر الله .وحدثته بما حصل معي. فقال لي: يا أخي أود أن أقدم لك خمس نصائح وهي كالآتي: **اقرأ الكتاب المقدس وصلِّ– احضر اجتماعات الكنيسة – ثابر على الشركة مع الإخوة – ابتعد عن أصدقاء السوء – واذهب وخبّر كم صنع بك الرب ورحمك.** وهذا بالضبط ما فعلته. وبدأت – على رغم معرفتي القليلة بالكتاب المقدس – أشهد لزملائي في العمل عن نعمة الله المخلصة وكذا شهدت لأصحابي الذين كنت أسهر معهم. لم يصدقوا بادئ ذي بدء، لكنهم رأوا بأم أعينهم التغيير الذي حصل معي، فتركوني وتخلوا عني. وفي أحد الأيام قلت لصاحب العمل أنا لا أريد أن أشتغل يوم الأحد. وبعد أخذٍ وردٍّ قَبِل معي. فأعطاني المفتاح وقال: إنك يا ريمون إنسان مخلص وتقي وأمين وأنا أثق بك. قلت: لا ، لم أكن كذلك قبلا، بل كنت أسرقك ودون أن تدري. أما الآن وبعد أن غيَّر الرب حياتي فقد أصبحت أميناً حقاً. وصرت أشتغل يوم الجمعة بدل الأحد كيما يتسنى لي فرصة لحضور الاجتماعات.

وفي هذه الأثناء كنت وخطيبتي نحضّر من أجل زواجنا الذي تمَّ بعد أسابيع قليلة. أما والداي اللذان علما أنني قد آمنت بالرب يسوع المسيح مخلصاً وأصبحت إنساناً أميناً مخلِصا وتركت المسكر والدخان وعلب الليل، فلم يكونا مسرورين، لا بل كان ردُّ فعلهما هو الرفض. وعندما قمت بزيارتهما لأول مرة مع عروسي، طردانا من بيتهما ولم يريدا أية علاقة معنا نحن "البروتستانت" كما أسميانا. وعليه انقطعت العلاقة مع والديّ بالكلية. أما والدي الذي كان قد فقد إحدى رجليه بسبب الغرغرينا، فقد دبَّ الحزن في داخله من جرّاء ما آلت إليه الأمور بيننا. ولم يجد له من بُدٍّ إلا أن يشكيني إلى الكاهن الذي بدوره أرسل طالباً مقابلتي.

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

فذهبت إليه وشرحت له بالتدقيق ما حصل معي وكيف أنني أصبحتُ إنسانا جديداً وتركت عاداتي القديمة، تعجب عندها وقال: الرب يباركك يا ابني. لكن عليك أن تساير أهلك، وتأتي معهم إلى كنيستك الأم في بعض الأحيان. فهل تفعل؟ قلت له إن شاء الله.

وفوجئت ذات يوم بدعوةٍ يقيمها والدي ضدي في المحكمة. فذهبت، ولمّا رأيت والدي تقدّمت وقبّلت يده. قال لي القاضي: والدك رفع دعوى ضدك لأنه بحاجة إلى دعم مادي شهري منك. فقلت له: ليس لديَّ أيُّ مانع يا حضرة القاضي، مع أنني كنت أعلم في داخلي أنَّ والدي لم يكن بحاجة لمساعدتي أبداً. فقال لي القاضي: كم تتقاضى في الشهر يا ابني؟ قلت: مئة وخمسة وسبعين ليرة. قال إذن عليك أن تعطي والدك اثنين وعشرين ليرة ونصف شهرياً. وعليك أيضاً أن تأتي بالمبلغ كل شهر إلى المحكمة. قلت: حاضر يا سيدي. ولمّا فُضَّتِ المحكمة، عاد والدي مكسوراً حزيناً وهوالذي تظاهر بالعجز أمام القاضي لأنه لم يلبسِ الرجل الاصطناعية التي لديه كالعادة، بناءً على نصيحة الأقرباء الذين حرَّضوه على رفع دعوى ضدي. وفي الشهر الأول تركت النقود له في المحكمة إلا أنه لم يأت ليأخذها لا في الشهر الأول ولا الثاني ولا الثالث. عندها أعفتني المحكمة من الدفع. فعلاً، لم يكن والدي بحاجة إلى دعم مادي مني، إذ كان لا يزال يشتغل ومصروفه اليومي يزيد ضعفين عمَّا حكمتْ به المحكمة علي بدفعه . ولم تكن هذه التصرفات سوى نوع من الضغوط يحاول الأهل أن يضعوها علي علّني أرتدع وأعود إلى أيامي الماضية .

نعم، وبقيتِ الحال هكذا إلى أن وُلدت ابنتُنا الكبرى يونا. إذ عندما سمع والداي بولادة طفلتنا الأولى ، أبدَيَا رغبةً جامحة لرؤيتها هما اللذان تمنيّا من كل قلبيهما أن يكون لديهما بنتٌ بين سبعة شباب أنجباهم. فأرسلا إلينا يطلبان حضورنا مع الطفلة. وكان اللقاء مؤثراً للغاية. وحملا الطفلة بين ذراعيهما وأحبّاها من كل القلب. واستقبلانا أنا وزوجتي استقبال الأمراء. ومنذ ذلك الحين حلّ السلامُ بيننا وعادت الأمور إلى مجاريها. وصار لي فرص عديدة لأتكلم فيها مع والدي عن المخلص يسوع المسيح. وحزنت جداً حين مرض وصار في غيبوبة. وبينما هو يحتضر كان يردد إسمي ويقول: ريمون ريمون ودموعه تنهمر على خديه. نعم حزنت لأنني لم أكن إلى جانبه عندما لفظ أنفاسه الأخيرة. ورحت أعاتب الرب الذي أخذه قبل أن يؤمن إيماناً حقيقياً فيه. وانزعجت جداً. وفي إحدى الليالي حلمتُ أنني في مكان جميل جداً مليءٍ بالبساتين الخضراء، ورأيت والدي هناك. ولمَّا طلبت إليه أن يذهب معي، قال لي: لا، أنا مرتاح هنا يا ابني. وفي الليلة التالية حلمت أنني فوق الغيوم ورأيت خِيَماً بيضاء منصوبةً، و نورٌ عجيب يشعُّ من كل خيمة. ورأيتُ هناك أيضاً والدي في إحدى هذه الخيم. دُهشتُ من هذا النور العظيم وطلبت إليه أن أجيء أنا أيضاً وأمكث معه، فقال لي : لا ليس الآن يا بني .ليس الآن. وأفقت من الحلم وعندي يقين كامل بأن والدي طلب الخلاص وحصل على الغفران الإلهي وهو يحتضر. لقد أعلمني الرب عن طريق هذين الحلمين أنَّ والدي قد آمن به في اللحظات الأخيرة من حياته. وهذا أيضاً ما حصل مع أخي الأصغر. إذ بقي يردد إسمي على شفتيه، في الساعات الأخيرة من حياته، لكنني وللأسف لم أستطع أن أكون إلى جانبه بحكم ظروف العمل خارج البلد على الرغم من أنني دعوته للتوبة أثناء مرضه.

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

نعم، إنَّ لله طرقا في التعامل مع البشر هي غير طرقنا نحن. وبقيت أميناً في الشهادة للآخرين عن إيماني بالمسيح . وفي يوم من الأيام سمعت عظة للقس ابراهيم عويس الطيب الذكر، راعي كنيسة الاتحاد المسيحي بدمشق أنذاك، عن زكا العشار وكيف أنه وقف أمام يسوع المسيح وصرَّح أمام الجميع بأنه سوف يردُّ أربعة أضعاف من أمواله لكل مَن وشي به. بقيتْ هذه الكلمات تلاحقني وكان ضميري يؤنّبني. والسبب لأنني وأثناء عملي في إحدى المطابع، لم يدفع لي صاحب المطبعة حقي كاملاً لقاء العمل الذي كنت أقوم له به. فما كان مني إلا أن سرقتُ الملقط الصغير المخصّص لصفِّ الأحرف في المطبعة عنوةً ليس لكونه ذا قيمة كبيرة بل لأنه مهمٌّ في العمل ويرد لي بعضا من حقي. وبقي معي سنين عديدة. وكنت كلما أفتح الدرج أراه وأتذكر أنني سرقته. ولكن بعد سماعي لتلك العظة أنّبني ضميري جداً، وقررت أن أتخلص من الملقط . فوضعته في مظروف وذهبت بنفسي لإرجاعه إلى صاحبه. ولما لم أجده هناك، أوصيت الرجل الذي التقيته وقلت له بأن يوصل المظروف إليه وحدثته عن القصة بأكملها. فتعجب من أمانتي بعد هذه السنين. أما أنا فارتحت من عبء الملقط الثقيل.

نعم، إن يسوع المسيح مخلصي هو الذي غيّرني ومنحني حياة جديدة. حقاً لقد:

أنقذني من الحمأةِ،

ثبَّتني على صخرةِ،

ترنيمةً وضعَ في فمي،

الأخ ريمون سابا لمجدِ اسمِهِ هللويا.

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service